نار المفقودين الصامتة التي لم تنطفئ بعد

«... لم يعودوا» لكن هناك «إشارات» على كونهم أحياء

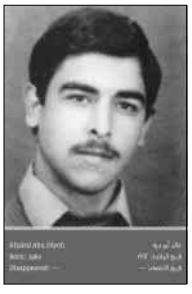
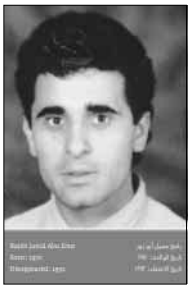

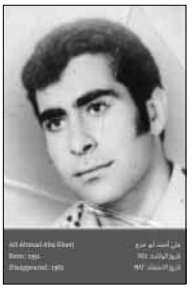

فادي طفيلي

الكتاب الكبير والمؤثّر الذي أصدرته منظّمة العفو الدوليّة عام ٢٠٠٧، والذي يضم صوراً شخصيّة لمئات المفقودين ـ المخطوفين في الحرب الجزائريّة خلال حقبة التسعينيات، شكّل لمطلقي معرض «...ولم يعودوا»، المعرض المنبثق من مشروع «ما العمل؟ لبنان وذاكرته حمّالة الحروب» (لأمم للتوثيق والأبحاث)، نموذجاً لحملة يصفها القيّمون عليها بال «بصريّة»، غايتها التوثيق وحثّ الذاكرة وإطلاق العمل لتسوية قضيّة عالقة، يظلّ بقاؤها هكذا، عمّا هي عليه، مؤشراً لمدى اتصال الحال اللبنانيّة الراهنة بجذر حربي ما زال يعيش بيننا حياة يوميّة عاديّة.

الكتاب الجزائري المذكور بالنسبة لمونيكا بورغمان، السيّدة الألمانيّة الناشطة اليوم في «أمم للتوثيق والأبحاث»، والتي كانت قد عملت صحافيّة في لبنان عام ٢٠٠١، بدا تجسيداً لبيان بصري ظلّت قضيّة المفقودين اللبنانيين، بشقّيها «المفقود والمنتظر»، والتي تناولت بورغمان عناصرها وأشخاصها مراراً في عملها الصحافي منذ عام ٢٠٠١، مفتقرة له.

من صديق في لندن، العام الماضي، حصلت مونيكا على كتاب المفقودين الجزائريين، الصادر عن منظّمة العفو الدوليّة في العام نفسه. وقد كان للصّور الكثيرة التي ضمّها الكتاب، الصور الشمسيّة العاديّة للأشخاص المختفين في الجزائر، امتداداً مادّياً وترجمة بصريّة للتناول الصحافي الذي حققته بورغمان قبل أعوام لقضيّة المختفين في لبنان. وقد أوحى الكتاب للسيّدة الألمانيّة، التي عقدت صلات وصداقات مع ناشطين محلّيين في القضيّة المذكورة (كالسيّدة وداد حلواني)، بما يمكن أن تلعبه الصورة، بإطارها البصري، من دور «شاهد» في قضيّة لا تزال عالقة في عوالم النسيان والنفي، أو أحياناً في بيئة الضّجيج البالغ الذي يساهم في طمس معالمها.

قضيّة المفقودين اللبنانيين، التي يتناولها مركز أمم للتوثيق والأبحاث اليوم في معرض «...ولم يعودوا»، تبقى واحدة من القضايا المأساويّة التي بقيت عواملها مستمرّة في لبنان منذ اندلاع الحرب في أواسط السبعينات وطيلة حقبة الاحتلالين السوري والإسرائيلي. فالمفقودون هؤلاء، الذين تتراوح أعمارهم بين الحادية عشرة والثمانين عاماً، بدأوا يفقدون ويختفون منذ مطلع الحرب، ولم تتوقّف ظاهرة اختفائهم حتّى العام ٢٠٠٤، على ما يفيد السجل الموثّق الذي عمل ويعمل ناشطو أمم على بنائه.

الآنسة غاليا ضاهر، وهي إحدى الناشطات في «أمم» والمنسّقة بين المشتغلين في جمع المعلومات والصور عن المفقودين ولهم، تولّت زيارة نحو خمسين عائلة من ذوي المفقودين وأقاربهم. كما واتّصلت بنحو مئة عائلة أخرى. وتشير ضاهر إلى أسماء مفقودين اختفوا وانقطعت أخبارهم تماماً في عام ٢٠٠٤، أي بعد أكثر من عقد ممّا اعتبر تاريخاً رسميّاً لانتهاء الحرب في لبنان.

بدأ عمل الآنسة غاليا ضاهر في جمع مادّة «... ولم يعودوا» منذ شهر تشرين الأوّل (أكتوبر) المنصرم. الانطلاق كان من الخيمة التي أقامها ذوو المفقودين أمام مبنى الإسكوا في وسط بيروت، حيث تمّ هناك، في تلك الخيمة، التعرّف على غازي عاد (من لجنة دعم المعتقلين والمنفيين اللبنانيين ـ سوليد) وعدد من أقارب المفقودين الذين كانوا يتجمّعون في الخيمة المذكورة في كلّ أربعاء من كلّ أسبوع بغية إحياء قضيّتهم.

نشاط ضاهر في خيمة الإسكوا حيث اتّصلت بغازي عاد وعدد من عائلات المفقودين ، معطوفاً على علاقة مونيكا بورغمان بالسيّدة وداد حلواني (من لجنة أهالي المخطوفين اللبنانيين)، كوّن لمشروع «أمم» التوثيقي، الذي يهدف إلى جمع صور المفقودين ومعلومات عنهم، فريق عمله.

المشروع، وهو يبقى مشروعاً قيد الإنشاء، جمع إلى الآن ألف اسم لمفقود، وقد استطاع الحصول على صور لخمس مئة شخص منهم . أكثر من مئتي صورة من الصور المذكورة جمعت بفضل جهود لوداد حلواني، فيما جمعت مئتي صورة أخرى بجهود لغازي عاد. الصور المئة الباقية تمّ جمعها من خلال الاتصال الذي حققته غاليا ضاهر بذوي المفقودين وأقاربهم في خيمة الإسكوا وفي مناطق طرابلس والبترون والجنوب والبقاع ...

في موازاة جهود الاتّصال المباشر بذوي المفقودين ومعارفهم، وبموازاة معرض صور المفقودين الذي انطلق الخميس المنصرم في الأونيسكو والذي سوف يتوسّع إلى ورش عمل وينشط على مدى عام كامل، أطلقت «أمم» في إطار مشروعها «ما العمل؟»، الساعي إلى توثيق ذاكرة الحرب في لبنان، موقعاً إليكترونياً (yatwork-www.koein.com/beta/memor) بعنوان «ذاكرة بلا كلالة». الموقع سيكون مفتوحاً للأبحاث والمعلومات المتّصلة بالمفقودين وقضيّتهم، كما وسيكون بمستطاع ذوي المفقودين ومعارفهم تزويد ألبوم صور المفقودين في الموقع المذكور بصور إضافيّة.

الموقع الالكتروني العتيد، كما ومعرض صور المفقودين، هذا الأخير الذي يأمل منه منظّموه تكوين جانب بصري لقضيّة تتفرّق شواهدها ويكتنفها الخوف والصمت، وأحياناً يخنقها الصخب، يشكّلان وسيلتين جديدتين يأمل مطلقوهما في أن تساهما في بلورة شواهد راسخة لقضيّة المفقودين ومنابر آمنة لأصحابها.

العديد من أصحاب القضيّة المذكورين، ذوي المفقودين وأقاربهم، بحسب الآنسة غاليا ضاهر التي عقدت صلات معهم، يحيون في أجواء من الخوف المزمن. إنّه خوف يدفعهم أحياناً إلى تجنّب الإفصاح عن أسمائهم الصريحة كي لا يفقدوا وظائفهم هم فيها منذ سنوات، أو حتّى لا يعرّضوا مفقوديهم للخطر حيث هم محتجزون. فمن بين أولئك المفقودين ، بحسب ضاهر أيضاً، أطفال كعادل طبّاع (أحد عشر عاماً، خطف مع عمّه في برج حمّود في الثمانينات) ما زال ذووهم يعوّلون كثيراً على عودتهم.

ثمّة شواهد ومعطيات عديدة لدى ذوي المفقودين تجعلهم حذرين جداً في التعاطي مع القضيّة، وذلك حرصاً على إشارات «الحياة» التي تمسّ مفقوديهم والتي حصلوا عليها قبل سنوات. فإلى المفقودين الذين بلا أثر تماماً، المختفين منذ عام ١٩٧٥، هناك مفقودون أمثال جوزيف عون مثلاً (خطفه القوميّون السوريّون وسلّموه إلى المخابرات السوريّة عام ١٩٨١)، ممن لم تنقطع أخبارهم تماماً سوى في عام ٢٠٠٠. مفقود آخر، كبشارة رومية (خطف عام ١٩٧٦، كان في عمر السادسة عشرة) زارته والدته في سجن عنجر السوري، ثمّ زارته مرّة في سوريا حين نقل إليها، وذلك قبل أن تنقطع أخباره. ستافرو أندرياتي (خطف عام ١٩٧٨) بقيت والدته تزوره في سجن المرّة طيلة عام كامل، ثمّ اختفى أثره. وهناك أيضاً مفقودون اختفوا في سوريا نفسها. عماد ياسين، الذي كان قادماً من الأردن عبر سوريا عام ١٩٨٥ فقد في هذه الأخيرة. داني منصور، الذي ذهب في عام ١٩٩٢ لزيارة أقارب له في سوريا لم يعد من زيارته تلك. أمّا المصري محمّد إبراهيم خالد، الذي كان قادماً من أستراليا عام ١٩٨٦ عبر سوريا، فقد اختفى في الدولة المذكورة. وتروي غاليا ضاهر التي تعرّفت إلى شقيق محمّد إبراهيم خالد، أن الأخير لا يزور مصر منذ اختفاء شقيقه كي لا يعود إلى أهله هناك بخبر فقد ابنهم.

الشقيق المذكور، الذي حصل قبل أعوام على «إشارات» تؤكّد وجود أخيه في سوريا، يداوم بالتواجد في خيمة ذوي المفقودين أمام الإسكوا منذ إقامتها. وتروي الآنسة ضاهر أن السيّدة سونيا عيد، والدة الجندي في الجيش اللبناني جهاد عيد، الذي اعتقله السوريّون في معركة ١٣ تشرين الثاني الشهيرة، قامت بزيارته في السجن بسوريا بعد ثلاثة أو أربعة أشهر من الواقعة المذكورة، وقد رأتْه السيّدة من دون أن يراها، إذ مُرّر أمامها معصوب العينين في طابور ضمّ معتقلين آخرين.

أخبار وإشارات كتلك، وهي «إشارات وشواهد حياة» يرويها ذوو المفقودين ويتمسّكون بها، تجعل هؤلاء الأهل أو الأقارب أو الزوجات (الأزواج) ممنّ لم يبارحوا انتظار من ينتظرون، يفكّرون مليّاً قبل انخراطهم في نشاط أو حملة علنيّة تطالب باسترداد مفقوديهم. إحدى العائلات المنتظرة تلك لم تشأ تقديم صور لمفقودها كي تعلّق في معرض «... ولم يعودوا». أهل آخرون في المقابل، كأهل مروان مشعلاني الذي فقد أيضاً في أحداث ١٣ تشرين الثاني، شجّعهم نشاط «أمم» وعملها التوثيقي الهادف إلى تزويد قضيّة المفقودين بشاهدها البصري، فنزلوا للمرّة الأولى إلى خيمة الإسكوا، وزوّدوا المعرض بصورة لإبنهم، علّه يعود.